والموهبة المتميزة غسان كنفاني الذي لم يعرف عنه حُبُّهُ للشكليات والاجتماعات الطويلة. وأول نشرة كتبتها كان عمري سبعة عشر عاماً، وكان تعليق الحكيم: لهذا الرفيق مستقبل رائع.

في سنوات السجن قرأت فيما قرأت الفلسفة الإغريقية، وأقنعتني انتقادات صادق جلال العظم لمنطق أرسطو، واحتجت لزمن وخبرات ريثما انتقل عقلي من المنطق الأرسطوي إلى المنطق الجدلي. وقرأت الكثير عن الفلسفات الهندوكية والصينية القديمة، وهما على قدرٍ عالٍ من الغنى والتشعب، شأن الثقافات الآرامية والكنعانية والفرعونية ... وهي أقدم من الكتب الدينية، وربما أن توينبي في كتابه الشهير «تاريخ البشرية» هو أول أوروبي ينفتح على الثقافات الشرقية واللاتينية ولا يحصر الفلسفة في أوروبا فيتجاوز، بهذا القدر أو ذاك، «المركزانية الأوروبية».

ولكنني اهتممت جداً بالأفكار النهضوية الأوروبية التي مهدت للثورة البرجوازية منذ قرنين أو ثلاثة، سيما أن الكثير منها لم ينفك يحتفظ براهنيته، ويجيب جزئياً عن بعض أسئلة الواقع العربي. لاحظت كيف سقطت الحكومات الثيوقراطية- الدينية والنظام الإقطاعي بعد مئات السنين من الحكم دون قدرة على إنتاج مدينة معاصرة وطبقاتها ومؤسساتها وعلومها، وبالتالي ولادة دول قومية أطاحت بالإمارات والمقاطعات في سلطة واحدة وسوق واحدة وعملة واحدة وأنظمة ديمقراطية لها سلطتها التشريعية التي ينتخبها الشعب وتسن القوانين، بديلاً لرجال الدين مع استمرار الدين كمسألة ضميرية في الوعي الاجتماعي.

لقد حلت المواطنة المتساوية أمام القانون دون تمييز ديني أو جنسي، ولاحقاً اشتركت المرأة في الانتخابات ... بما صاحب ذلك من قفزة في قوى الإنتاج والتعليم. وعبرت هذه المرحلة عن ثورة عارمة صنعها البشر بإرادتهم وعقولهم، وبالتالي علينا أن نصنع ثورة.

كنت قد قرأت عن النهضويين العرب في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات العشرين، الكواكبي، الأفغاني، محمد عبده، سلامة موسى، شميل .. ولكن مأساتهم أن أفكارهم التجديدية بقيت دون حامل اجتماعي- سياسي لإطاحة الأنظمة البالية ومنظوراتها المتخلفة، فبقيت في المتحف، بل إن الكثير من هذه الأفكار لم تفقد راهنيتها كالوحدة العربية والمواطنة وحق الاختيار والعقل والنقل والحرية والمساواة...

لفتني ما قاله هوبز عن العقد الاجتماعي بين الناس، واعتبرته دعوة لعقد اجتماعي بين رفقاء النضال والشعب بما يتطلبه من انسجام متبادل وإنجاز جماعي وعدم التفريط بحقوق الجماعة.

وكتب روسو عن الإرادة العامة، ليس في حدود الإرادة الانتخابية وتشريع القوانين فقط، بل تفعيل الإرادة الشعبية في نضال ضروس ضد المحتل. كما تفعيل الطاقة الحزبية لجميع الأعضاء في نضال مشترك ضمن (الضمير الجمعي) لينين، وما قاله مونتسيكيو عن قدرة البشر على إحراز التقدم استناداً للعقل والتضحية بالأنانية من أجل الصالح العام ودعوته لتحريم البذخ وتوزيع الثروات بعدالة وفصل السلطات ... الخ.

هذا جعلني أُعيد الاعتبار لدور الإرادة الواعية، ولا أبالغ في تقدير الظرف الموضوعي وتبرير الأخطاء